أمَا آنَ لِلْفَارِس أنْ يَتَرَجّل

أمَـــا آنَ لِلصّقْـــرِ المُحَلقِ فِـي العُلَىٰ
عَلَى قِمَمِ الفِـــرْدَوْسِ أنْ يَتَـرَجّـــلاَ ؟
مُطِـــلاً مِنَ المَـــاضِي بِقَـــامَـةَ فَـــارِسٍ
وَمُـرْهَفَ سَيْفٍ كَـــانَ فِي اليَـدِ مَشْعَـلاً
وَفِي هَـــامَـــةٍ شَمَّـــاءَ شُـدّتَ عِمَـــامَـــةً
تُـــظَـــلّـــلُ وَجْهـــاً أسْمَـراً قَـــدْ تَهَلَّـلاَ
وَتَحْتَ جَنَـــاحِ الصّقْـــر قَلْبٌ يَحُثُّـــهُ
إلَى الغَـــرْبِ إنْ حَـــدّ الخُطَى أوْ تَمَهّـــلاَ
رَأى نَخْلَـــةً فِي الغَـــرْبِ عَـــزْلاَءَ مَثـــلَهُ
كَأنْ لَمْ يُشَـاهِـد مِثْـلَهَا وَهْـوَ فِي الفَـلاَ
فَحَنَّ إلَـى أرْضِ الحِجَـــازِ وَنَخْلِهَـــا
وَقَلّـــدَهَـــا شِعْـــراً مِنَ الـــدُّرِّ أجْمَـــلاَ
وَحِيـــداً يُغِـــذّ السّيْـــرَ فِـي رِحـــلاَتِـــهِ
وَفِي صَـــدْرِهِ قَلْبٌ يُعَـــادِل جَحْفَـــلاَ !
شُـــدِدتُ إلَـى تِمْثَـــالِـــهِ وَرَأَيْـتُ فِي
مَـــلاَمِحِـــهِ عِـــزاً وَمَجْـــداً تَمَثَّـــلاَ

وَقَبَّلْتُ بُـــــــرْداً لَـفَّ أطْيَـبَ مَنْكِـبٍ
وَأكْـرِمْ بِـــهِ بُـــرْداً وَإنْ شَفَّـــهُ البِلَى
كَأنَّ عَلَـى أكْتَـــافِـــهِ كُـلّ مَـــا بَنَى
وَمَـــا شيـدَ مِـنْ مَجْـدٍ أخِيـــراً وَأوَّلاَ
فَلِلّـــهِ نحَـــاتٌ ! أعَـــادَ حَقِيقَـــةً
بإزْمِيـــلِهِ مَـــا كَـــانَ لِي مُتَخَيـــلاَ
دَخَلتَ كَمَـــا قَـــالُـــوا ! وَلَمْ يَـكُ هَينـاً
لَتَبْنِي هُنَـــا مُلْكـــاً، وَقَـــدْ كُنْتَ أعْـــزَلاَ
وَلَكِنّـــكَ الصَّقْـرُ الـــذِي يَمْـلأ الفَضَـــا
صَـدَاهُ. وَلاَ يَـــرْضَى لَـهُ السفْـحَ مَنْـزِلاَ
طَلَعتَ طُـلُوعَ الشّمْسِ مِنْ مَشْـرِقِ الهُدَى
لِتَطْـــرَدَ لَيْـــلاً مِنْ هُنَـــا كَـــانَ أليَـــلاَ
نَـــزَلْتَ كَعِيسَـــىٰ فِي بِـــلاَدٍ وَجَـــدتَهَـــا
مَـــوَاتـــاً بِـــلاَ رُوح. وَعَقْـــلاً مُعَطّـــلاَ
فَأنْشَـأتَهَـــا خَلْقـــاً جَـــدِيـــداً وَأصْبَحَتْ
مَنَـــارَةَ إشْعَـــاعٍ، وَغَيْثـــاً وَمَنْهَـــلاَ
وَلَمْ يَكُ فِيهَا السَّيْفُ فِي السِّـــلْمِ مَقْصَلاً
وَلاَ كَـــانِ فِيهَـــا فِي المَعَـــامِعِ مِغْـــزَلاَ
رَفَعْتَ بِهَـــا لِلْعُـــرْبِ أسْمَىٰ حَضَـــارَةٍ
وَكَـــانَتْ لِـــدِينِ اللّـــهِ وَالعُـــرْب مَعْقِـــلاَ

وَكَـانَتْ فَـرَادِيسـا تَفِيـضُ نَضَـارَةً
وَكَـانَتْ نَعِيمـاً طَـابَ حُسْنـاً وَمُجْتَلَى

فَحَيْثُ شَمِمْتَ العِطْـرَ أبْصَـرتَ رَوْضَـةً
وَحَيْثُ سَمِعْتَ الطّيْـرَ أبْصَـرْتَ جَـدْوَلاَ

مُنَى النّفْس فِيهَـا ظِلُّ دَوْحٍ وَمِـزْهَـرٌ
وَمَجْلِسُ أُنْسٍ يَجْعَـلُ اللّيْـلَ أطْـوَلاَ

شَـذَا الشِعْر فِيهَـا كَـالـزُّهُورِ مَتَى شَـدَا
بِألْحَـانِـهِ زِرْيَـابُ غَنّى وَأثَمَـلاَ

* ● *

وَقَفْـتُ عَلَى أطْـلاَلِهَـا وَكَأنَّنِـي
مُحِبٌّ أتَـىٰ بَعْـدَ الـرّحِيـلِ لِيَسْألاَ

وَلَـوْ أنَّـنِـي أبْكِي بِعَـيْـنِي رَأيْـتَ لِي
دُمُـوعـاً عَلَى أمْجَـادِ قَـوْمِيَ هُطَّـلاَ

وَلَكِنَّنِـي أبْكِـي بِقَلْـبٍ مُقَـرَّحٍ
بُكَـاءَ الثّكَـالَـىٰ قَـدْ فَقَـدْنَ المُعَـوَّلاَ

رَأيْتُ قُصُـوراً لَيْتَنِيَ مَـا رأيْتُهَـا
فَقَـد نَكَأت فِي القَلْبِ جُـرْحـاً تَـوَغَّـلاَ

لَقَــدْ كُنْتُ كَــالصّب الــذِي ظَـنَّ أنَّــهُ
تَسَلى عَن الحُـب القَــدِيمِ وَمَــا سَــلاَ !
بِكُلّ مَكَــــانٍ آيَــــةٌ عَــــرَبِيَــــةٌ
وَتَــارِيخٌ مَجْــدٍ مَــا يَــزَالُ مُسَلْسَــلا
مَسَــارِحُ عِــزّ أقْفَــرَتْ بَعْــدَ عِــزِهَــا
وَقَلْعَــةُ مَجْـدٍ قَـدْ هَــــوَى وتَــحَــوَّلا
وَفَنٌ كَسَــــا أبْهَــاءهَــــا مُتَحَــدِثٌ
بَلِيغٌ عَلَى طُــولِ المَــدَىٰ مَــا تَبَــدَّلاَ
مَعَــالِـمُ خُــرسٌ غَيْــرَ أنَّ لِسَــانَهَــا
جَــــوَامِعُ آيَــــاتٍ وَوَحْيٍ تَنَــــزَّلاَ
قَــلاَئِد مِن وَحْـي السَّمَــاء تَحُــوطُهَــا
فَلِلّــهِ مَــا أبْهَىٰ سَنَــاهَــا وَأكْمَــلاَ !
مَضَتْ أُسُــدٌ كَــانَـتْ هُنَــاكَ رَوَابِضــاً
وَأبْقَتْ تَمَــاثِيــلاً وَلَمْ تَـكُ أمْثَــلاَ !
وَأيْــدِي اللَّيَــالِي لاَ تَطِيـشُ سِهَــامُهَــا
إذَا مَــارَمَتْ تَخْتَــارُ لِلسَّهْمِ مَقْتَــلاَ
أجَلتُ عُيُــونِي فِي مَطَــارِح حُسْنِهَــا
وفِيهَــا فُــؤَادِي قَبْلَهَــا قَــدْ تَجَــوَّلاَ

فَأبْصَـــرْتُ فَيْضـاً مِـن سَنًى مُتَـوَهِجـاً
وَعَـــايَنْتُ رَوْضـــاً بِـــالفِخَـــارِ مُكَلَّـــلاَ

مَضَـوا وَغَـوَالِي المَجْـدَ وَالفَنّ مَـا مَضَتْ
تَقُص عَلَى الأجْيَـــالِ مَجْـداً مُـــرَتَّـــلاَ

سَـــلاَمٌ عَلَى غَـرْنَـــاطَـــةٍ وَقُصُـورِهَـــا
وَمَـــاضٍ سَنِي مُسْتَطَـــابٍ بِهَـــا خَـــلاَ

سَـــلاَمٌ عَلَـى أيَّـــامِنَـــا بِـــرُبُـــوعِهَـــا
وَعَيْشٍ نَضِيـــرٍ بَعْـــدَهَـــا قَـطّ مَـا حَـــلاَ